كوحش كاسر يجيء الفقد ويمضي (١)

عبدالله بني عرابة*

بالأمس رحل الشاعر الكبير محمود درويش. حضرت مشاهد من احتفائية تأبينيه على قناة الجزيرة. وقبله غادر دنيانا مبدعون كثيرون وبعدهم سيرحل الباقون.

يا إلهي كيف يكون شكل الأرض والحياة بلا شعراء ولا كتاب ولا مبدعين؟!

***

أيهما أصح أن نقول ـ أهمس لنفسي ـ :
الموت نقيض الحياة أم
الموت نهاية الحياة؟

شخصياً أميل إلى أن الموت هو نهاية الحياة وليس نقيضها، إنه تكملة لها، ختامها، آخر مطافها. هو ـ أي الموت ـ لا يقع على الضفة المقابلة للحياة حتى يصير نقيضها، بل هو على ذات الضفة معها.

حيث تولد الحياة يحل الموت إذن.

ترى ألهذا السبب تنطلق تلك الصرخة من الفم الصغير عند الولادة؟!

الكائن يقيم عزاءه الخاص على مشارف بوابة الحياة المشرعة. كم هو صادم واستفزازي أن تبدأ الحياة بطولها وعرضها، بانجازاتها وانكساراتها بنوبة بكاء وتنتهي بنوبة مماثلة.

هو الكائن البائس يبرم عقداً طويل الأجل مع سمسار لئيم يدعونه الفقد.

***

يا الهي العظيم أنزل سلامك العادل والشامل على هذه الروح علها تنعم أخيراً بشيء من سكينة مرتجاة بعد سعي مدوخ في ارتياد آفاق كلام لا أول له ولا آخر.

***

وأنا أسمع أخبار الفلسطينيين أتساءل: ألا يمل السفاح من جلد ضحيته أبداً، فيتركها تجابه مصيرها المحتوم في سلام؟!

***

الظن مقلب العقل الذي دبره للحقيقة التي تبدت دون ساتر يسترها.

***

يحتار المرء حتى أمام النظريات ونتائج التجارب العلمية التي يفترض بها أن تجلي اللبس وتقضي على هاجس الحيرة، فعندما يحض علماء على احتساء كميات كبيرة من الماء يقول آخرون: لا تشرب أبداً إلا إذا أحسست بالعطش.

هنا تكمن نعمة العلم ولعنته!

***

الذي مات مرتان.

لن أتكلم هنا عن وفاة المأسوف على شبابه إثر حادث سير أليم تحت جسر الموالح ظهيرة يوم قائض، ولكن الموتة الثانية هي التي تهمني، حيث الإسعاف النظيفة كلياً وصلت لنقل الجثة في وقت قياسي، يحسب لسجل السائق الوظيفي كما يحسب ـ ربما ـ في ميزان حسناته.

بيد أن هذا السائق الشاب عينه هو من رحل ـ أثناء قيادته ـ متموجاً في سراب خياله، حاسباً ديونه وأقساطه المجتزأة من راتب وظيفته هذه، مكتشفاً للمرة الألف أنه لن يستطيع التخلص من مالك منزله قبل ست سنوات من الآن.

عند نهاية الحسبة وقبل بلوغ بوابة المشفى الكبيرة، دارت عربة الإسعاف حول نفسها دورتين كاملتين ونصف الدورة الثالثة.

تلقفتها أكف الموت في لهفة بادية.

* as_baniarabah@hotmail.com

وجوه وظلال (١٨)

مختارات ـ صالح العامري*

عطّارون

فريد الدين العطار، صاحب كتاب: "منطق الطير":

سُمي العطار بذلك لأنه عمل في بداية حياته عطاراً، وقد ورث العطار المهنة عن أبيه الذي كان عطّاراً هو الآخر. وكان فريد الدين على ثراء في بداية حياته، فهو ذلك الشخص الذي كان يأتيه كلّ يوم خمسمائة مريض؛ فيجسّ نبضهم ويبيع الدّواء لهم. لكن حاله قد تبدّلتْ بعد أن هجر الصيدلية. فقد وصل إلى حالة قريبة من الفقر؛ وكان طعامه الخبز الجافّ يبلله بدموعِ عينيه، حيث قال: وعندما أقيم مائدةَ من خبز خشن فإنّي أبلله بدموع عينيّ.

كما يبدو من شعره أيضاً أنه كان يحبّ العزلةَ ولا يثق في الخلق، حتى أنّه سمّى نفسه بمالك الحزين.

ومن ما كتب على قبره: "هذه جنات عدْن في الدنيا، عطر العطار مهجة من دنا.

إنه قبر ذو مكانة عالية، من كان تراب طريقه كحْل الفُلك الأزرق.

وما أعجبه من عطار، فقد تعطرت الدنيا على رحبها بشذى أنفاسه...

***

من مقال لعلي الخليلي، عن أبي حيّان التوحيديّ:

"الرسالة البغدادية" التي وضعها أبو حيان التوحيدي، تتحدّث عن رجل اسمه المُجلّي أبو القاسم أحمد بن علي التميمي، عاش في بغداد، في مطلعِ العهد العباسي، في القرن السابع، ينتمي إلى كائنات الظرف والنّباهة، وإلى الفسق والسفاهة أيضاً. فهو "مختومٌ بالعنبرِ، ملفوفٌ بالحريرِ الأخضرِ" من جانب، وهو من جانب آخر "أشخم من طين السمّاكين وأنتن من ريح الدباغين" وكانت نباهته في قدرته الفذة على التماهي مع كل أنواع العطور في عصره، وسفاهته أنّه مجرد "كبّة على مزبلة".

كانَ أبو حيان التوحيديّ في روايته أو رسالته عن عطور بغداد يبدو مثل عطّارٍ محترف. يقول أبو حيّان في رسالته: "ولا أرى واللهِ، في عطركم مُثلثة برْمَكِيّة، سُكرية، وجوهريّة، وعُماريّة، ولا ذريْرَة الورد، ولا الغالية العنبرية، ولا الكافورية، والصفراء التي لا تؤثر في الثياب، ولا السّاهريات المتخذة بدهن العنبرِ، ودهن الأترج، ولا اللخلخة الصندلية، ولا الشمّامات، ولا نضوج الأنداد، ولا العود الطريّ، ولا المَندَلِيّ المنتخب، الذي قد طلي بالمسك الصفدي والزعفران الشاميّ والكافور، ولا قرنفل ولا بان ولا محلب.

والنَدّ في المجالس تراه يعقد كالضباب. نشرُهُ ألذّ من رؤية الأحباب".

*****

من مراجعة عبدالستار ناصر لرواية العطر لباتريك زوسكيند:

باتريك زوسكيند لم يترك عطراً ألا وحكى لنا عن مشتقاته وأصله، ولا رائحة إلا وجاء على ذكرها، مولع (هو) بوصف الأشياء حد الجنون، فهو لم يترك رائحة الشراشف الرطبة المحشوة بالريش ولا رائحة الغبارِ تحت المطر، ولا رائحة الأسنانِ المقلوعة والبصل الذابل، والسمك المجفف، وكذلك رائحة الفلاح في الصباحِ ورائحة الراهب في المساء، كما يحكي عن أغصان القرفة والبتولا والكافور والصنوبر والنارنج والمسك والسرو والبخور والياسمين والنرجس والزنبق والبلوط، حتى ترى في كتابه ما يشبه القاموس لمئات الروائح والعطور، أنظر إلى قوله "كان ذئباً في فروة خروف وأن رائحته لا تناسب غير حقير موهوب".

هل اشتغل زوسكيند في مهنة العطارة أم أنه جاء بكل ذلك من إحساسه المرهف بما ينبعث حوله من روائح الأرض والبشر؟ انه كما نرى يفهم جيداً في طبخ الصابون من دهن الخنزير وخياطة القفازات من جلود التماسيح، كما أنه يعلم كيف يَبْرُمُ الشموع من فحم الخشب ونترات البوتاسيوم ونشارة الصندل وكيف يأتي بكرَاتِ الدخان من البخور والقرفة وجوز الهند، بل تراه يمضي بك إلي نكهة النعناع وزهر الخزامى وبذور اللوز المُرّ وحبات المسك والعنبر وجذور البنفسج، لتُصنع أصفى أنواعِ الكحول (كيف؟ لا تدري) لكنه على طول الرواية: لا ينقطع عن تركيب العطور وتصفية الخلائط والمساحيق والسوائل حتي يأتيك بما تشاء من حب اليانسون وبراعم الناردين والكمون وجوزة الطيب والقرنفل وما عليك غير الانتباه إلى نسبة ما تأخذ من هذا وذاك، وإذا بك أمام عطر يفوح في البراري والسفوح والجبال والواحات القصية، تكفي قطرة واحدة أن تبعث السرور والفرح وقطرة غيرها من عطر آخر سوف تبعث الحزن وذرف الدموع ! كتاب عجيب حقاً هو (العطر) الذي أبدعه باتريك زوسكيند، وحين تشمّه جيداً ستأتي علي ذاكرتك حرب الوراثة في أسبانيا، وابنة أحد اتباع طائفة (الهوغنوت) التي سحرها أريج الخزامى فأسلمت نفسها إليه، سترى نفسك في ضوء القمر مع الأشربة المعتقة وصياحِ الجنادب مثل أيّ أمير في قصر فاخر، وحين ينتهي الكتاب بعد مزارعَ شاسعة من حبوب الجرجير والبيلسان وشجر التنوب والزعتر والكمون، ستكتشف فجأة أن كل ما رأيت لم يكن غير كتاب كنت تقرأ فيه برغم أن الروائح ستبقى حتى بعد آخر صفحة كنت تجلس فيها بين غابات المؤلف وأحراش بطل القصة (جانِ باتيست غرنوي) الذي مات (مأكولا) في آخر سطر من الرواية، مع أن العطر ما يزال يملأ سوق السمك في باريس، وهو يحكي لنا قصة قاتل ما كان يفهم من جرائمه المتكررة غير أنه، ومن أجساد النساء المذبوحات، كان يصنع عطراً..

اللوحة للفنان سلمان الحجري

******

جاء ليتعلم حرفة العطور، لكنه مات عندما بلغ الشاطئ، للشاعرِ اليوناني كفافيس، ت.نعيم عطية:

على ظهرِ سنين ـ غير معروف الهوية ـ وصل إيميس إلى هذا المرسى السوريّ.

كانَ شاباً في الثامنة والعشرين، وجاء يتمرن علىِ تجارة العطور.

أثناء الرحلة مَرِض.

وما إن نزل إلى البرّ حتى أدركته المنية.

شُيّع جثمانه في جناز فقير، ودفن مجهولاً هنا.

وقبل مماته بسويعات، تمتمتْ شفتاه ببعض الكلمات عن "دار" وعن "أقرباء مسنين"، لكنْ لم يعرف أحدٌ من كان أهله، ولا عرف أين كان بلده، في هذه الديار اليونانية المترامية الأرجاء.

هذا أفضل، على أية حال، لأنه وهو يرقد في هذه المدينة الساحليةِ، ميتاً، سوف يظلّ أقرباؤه، يأملون دوماً أنه لا زال حياً بين الأحياء.

*****

عجوزٌ تمنــت أن تعود صبية   وقد ذبل الخدان واحدودبَ الظهرُ
فراحت إلى العطار تبغي شبابها   وهل يُصلح العطارُ ما أفسد الدهر!

* شاعر عماني

الأمية الفنية

عبدالكريم الميمني*

يعتبر الاشتغال الأكاديمي الحميد في السعي الدؤوب لحسر الأمية الأبجدية أمر تثاب عليه كل أمة تبغي نوال الارتقاء لشعبها وتنشد العلياء لمجدها حتى لا يُحسب في كيان وطنها أحد لا يفقه ما يقوله عصرنا الحاضر ذو التطور الباهر، غير أن محو الأمية الأبجدية لا يكوّن وحده شخصاً مستنيراً يلحق بالركب في نموه الاجتماعي المتكامل بل يضعه على درجة معرفية محددة يرتقي في مراتبها ولربما يتعمق في تخصصه الوظيفي أو العلمي لدرجة تفقده الشعور والاستمتاع بجمال وروعة الحياة من حوله، وفي ذلك يجب أن تسير محو الأمية الفنية بتلازم متواز مع محو الأمية الأبجدية وتبذل لها الجهود الكفيلة لتقوم بدورها على الوجه المثالي والأكمل، وإذا ما تم تهميش هذا الجانب وجعله قصيرا وضعيف الحيلة فلا ريب بأننا سنحصل على جيل فاقد للذوق وعلى مدنية بدائية مقفرة، لأن معنى عدم الاهتمام بنشر الفن الجمالي في المجتمع هو إخراج أشخاص فاقدي الحس أو كما يذكر الدكتور محمود بسيوني في كتابه الفن والتربية لهم عيون ولكن لا يبصرون بها، ويضيف بأن الأعمى المبصر خير للمدنية من المبصر الأعمى ويؤكد على كلامه بقصة كفاح هيلين كيلر الأديبة الأميركية المشهورة التي فقدت قدرتها على الإبصار، وكانت صماء بكماء حيث يشير إلى أن القارئ لكتابها يتبين منها ما تستطيع أن تحسه، وهو يفوق في كثير من الأحيان ما يستطيع أن يبصره رجل وهبته الطبيعة كل حواسه ولم يعرف كيف يستخدمها.. إن الفن في الحقيقة يستخدمه كل إنسان في حياته بصرف النظر عن الوظيفة التي يؤديها في هذه الحياة وعلى ذلك لا بُد أن ينال كلٍ فرد نصيبه من الثقافة الفنية، ومن الممارسة التي تكونه تكويناً تذوقياً نامياً يستطيع معه أن يترجم كل ما حوله ترجمة استمتاعية، فبذلك يمكنه أن يعدل في البيئة وينميها جمالياً كما تعدل البيئة فيه وتعطيه الراحة الجمالية.

وعلى ذلك فإن الاهتمام بغرس القيم الفنية والتذوقية بين فئة الدارسين على وجه الخصوص باعتبارهم جيل المستقبل في كل أمة، وعامة الناس على سبيل العموم ستحدث حتماً حركة رقي اجتماعي مستمرة في حياة ذلك المجتمع وستتربى أجياله على حب الجمال واحترامه وتقديره وإدخاله في كل صغائر شؤونها قبل كبيرها، فالتربية التي تنشُد التعايش مع الجمال ستنتج لنا أجيالا راقية تحمل بين روحها حساسية فنية عالية تجاه الأشياء وستميز بشكل دقيق بين القبيح والجميل والغث والسمين والفني من غير الفني وما يقبله الذوق ويحبه ومما يستهجنه ويمتعض منه ويرفضه ويبتعد عنه. فإذا وصل المجتمع لهذه المرحلة فإننا بذلك نكون قد أوصلنا المجداف إلى القارب وحققنا الجانب الأسمى من نشر الفن في المجتمع والتأثير الإيجابي على اختياراته ليتقدم بذائقته الجميلة في بحر الحياة بأنفاس تبصر ما حولها بأسمى وأرقى معانيها.

وحتى يتحقق لنا الهدف المنشود من رفعٍ مستوى الذائقة الجمالية في كيان مجتمعنا العُماني خصوصاً وبقية المجتمعات عموماً فإن الأمر فيه من السهولة ما فيه ولا يتعدى أكثر من تفعيل البنى التحتية لحركة الثقافة والفنون في السلطنة بشكل أكبر من خلال تضافر الجهود التي تقوم عليها المؤسسات التربوية والاجتماعية والفنية وذلك لتكثيف إقامة المعارض النوعية التي تخاطب أذواق العامة حتى يتم تعديل الخلل وجانب القصور الذوقي في كل واحد منهم، ومن المهم أن لا تقتصر المعارض على المدن بل يجب أن تتوزع أيضا في الولايات والقرى البعيدة لتخاطب بمحتواها فلسفة وثقافة كل مجتمع؛ ولتفعيلها بشكل أكبر يفضل أن تنظم معها الندوات والمحاضرات وورش العمل التثقيفية التي ترفع من الذائقة الجمالية، وليس من دواعي الوجوب لتحقيق هذا المرام أن تضم هذه المعارض لوحات تشكيلية أو أعمال فنية فقط بل من الممكن أن تعرض على سبيل المثال صور ضوئية أو لوحات فنية لمبانٍ ذات مستويات عالية من التصميم وتحمل التناسق الجميل في الألوان التي استخدمت في دهانها، أو صورا للأزياء العمانية وبها لمسات خاصة من التطوير الذي يحافظ على أصالتها وهويتها وبألوان عذبة متناسقة مريحة للناظرين، وهكذا في بقية مجالات الحياة الإنسانية، لينمو الجمال في المجتمع وتتطور الرؤية الفنية البصرية بين أفراده، ولتنتهي تجربة كل فرد في المجتمع مع مداومة رؤيته لأرقى مراتب الجمال في ما يتعامل معه إلى حدوث تغيير حتمي في سلوكه الذي سينعكس على حسن اختياراته الجمالية للأشياء فهذا التغيير سيجعله يتحسس الجمال بعينيه ويديه وسائر حواسه في كل ما يحيط به، وسيرى مع دوام هذه الممارسة العلاقات التشكيلية للأشياء فيدركها ببصيرته لتصبح جزءاً من شخصيته، فالجمالي منها يُقبل عليه ويجعله منهجاً له والنابي منها يلفظه ويستهجنه، فحينما يتدرب الفرد على أن يحُس الجمال ويدركه، ويربط بين هذا الإحساس وشتى أنواعٍ السلوك، فإننا بذلك سنجزم بتمام اليقين بأن تربيته فنياً قد ارتفعت وحدث له التمدين الذي يميزه عن الفرد الذي لم ينل حظه من هذه التربية الجمالية.■

al-maimani@hotmail.com

Printed at AL WATAN AL OMANEYA Printing Press

طبعت بمطابع الوطن العمانية